

الباب الرابع

حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس

- (١) النظام السياسي والادارى .
 - (٢) القضاء .
 - (٣) الجيش والبحرية .
 - (٤) الحضارة المادية .
 - (٥) منشآت بيبرس .
 - (٦) الحياة العلمية والأدبية .
 - (٧) الحالة الاجتماعية .
-

الباب الرابع

حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس

١ - النظام السياسى والإدارى

لم تشغل بيبرس الحروب الخارجية عن الاهتمام بشؤون مصر الداخلية، فقد وضع أساس النظام السياسى لدولة المالك ونظم إدارتها وكان صاحب الأمر المطلق فيها إذ لم يكن لديه مجلس نيابى يستشير به بمقتضى دستور أو نظام خاص .

وعلى الرغم من أنه أعاد الخلافة إلى العباسيين فإن الخليفة لم يكن له فى عهده من الأمر شىء اللهم إلا ما كان متعلقا بالدين وحراسته^(١) . وهكذا لم تصبح للخلافة فى عصره أى صبغة سياسية، كما لم يبق للخليفة أى نفوذ بعد أن كان الناس لا يرون لهم حاكما غيره يجمع فى يده بين السلطتين الروحية والزمنية .

أما عن نظام الحكم فى عصر بيبرس فقد كان ملكيا وكانت السلطة قبل انتقالها إليه لا يناها إلا أقوى الأمراء نفوذا وأكثرهم أنصارا وأشدهم دهاء . فرأى بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر أن يعمل على حصر وراثته العرش فى أسرته^(٢) ، بمعنى أن يكون الحكم فيها ملكيا وراثيا فى أنبائه . وقد مهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد سنة ٦٦٠ هـ . ثم لم يلبث بعد ذلك أن ولاء عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢ هـ ، لينوب عنه فى مصر أثناء اشتغاله بحاربهم ، وأقام لذلك احتفالا عظيما زينت فيه القاهرة وتنافس الأمراء وكبار رجال الدولة فى إقامة معالم الزينة تكريما له فاستبشر بذلك

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 30.

(٢) Muir Op. Cit p. 32.

العامة والخاصة وتقرر أن يكون أتابكه عز الدين أيديمر الحلي . ثم قرئ تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء وقد جاء فيه :^(٢)

”الحمد لله منى الغروس ومبهج النفوس ... ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد كثر الله عدده وعدده ... ونصلي على سيدنا محمد الذي أطلع الله به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الردى ... كانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو ورأينا أنه الخلال الذي أخذ في ترقى منازل السعود إلى الأبدار وأنه سرنا الذي صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار . أردنا أن ننصبه في منصب أحلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خولنا الله من شرفه وأن تكون يدينا ويده تقتطفان من ثمره ... جعل الله مطلع سعده بالاشراف محفوفا وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع الدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصريفا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها وغورها ونجدها وعساكرها وجندها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها وولاياتها وأقطارها ومدنها وأمصارها وسهلبها وجبلها ... وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام وغير شام ... ومن يسكنها من حقيروجليل ... وجعلنا يده في ذلك كله الميسوطة وطاعته المشروطة ونواميسه المضبوطة ، ولا تدبير ملك كلى إلا بنا أو بولدنا يعمل ، ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يسأل وهذا يسأل ، ولا دست سلطنة إلا بأحدنا يتوضح منه الإشراف ، ولا غصن قلم في روض أمر ونهى إلا ولدينا ولديه تمتد له الأوراق ، ولا منبر خطيب إلا باسمينا يمس ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق ويكاد تبرجا لا بهرجا يتطلع من خلال الكيس . فليتقلد الولد ما قلدهناه من أمور

(١) يفهم ما ذكره النويري ج ٢٨ القسم الأثول ورقة ١٦٠ ، أن بيبرس لم يكتف بهذا التفويض بل دعا الأمراء في صفر سنة ٦٦٧ هـ ليقسموا يمين الطاعة للملك السعيد ؛ ولما تم له ذلك جدد تفويض عهد السلطنة إليه .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٨ و ٥١٥ — ٥١٦

العباد ، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد ... والله لا يعدمنا منه إشفاقا وبرا ويجعله أبدا للأمة سندا وذخرا^(١) .

على أن نظام وراثته العرش لم يكن مألوفاً عند الماليك؛ فقد كانوا يعتقدون أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بالمهارة الحربية وكثرة الأتباع والحدق في تدبير المؤامرات . وفي أغلب الأحوال كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم فلا يلبث أن يخاعه أتابك^(٢) كما فعل الملك المظفر قطز مع الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيك^(٣) . وقد فطن بيبرس لذلك عند ما أحس بالموت فكتب وصية لابنه الملك السعيد يحذره فيها من الأمراء المحيطين به . ومنها : " إنك صبي وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي . فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحقت ذلك عنه فاضرب عنقه في وقته ولا تعتقله ولا تستشر أحدا في هذا وأفعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصابحتك^(٤) .

وقد تحقق ما كان يخشاه بيبرس فإنه على أثر تولية ابنه الملك السعيد أخذ الأمراء يعملون على تقويض سلطته حتى اضطر أخيرا إلى النزول عن العرش بعد أن ظل في الحكم أكثر من سنتين^(٥) .

ولما نزل الملك السعيد عن العرش اتفق الأمراء على تولية الأمير قلاوون سلطنة مصر فامتنع وقال " أنا ما خلعت الملك السعيد طمعا في السلطنة والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر^(٦) " .

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٨١ و ٨٥

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 219. — أتابك : معناها مرعى الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الدولة وزير ملكشاه بن الب

أرسلان السلجوقي حين قوض إليه ملكشاه تدبير الملكة سنة ٤٦٥ هـ . انقلشندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ وقد تحوّل هذا اللقب إلى لقب عسكري في عصر الماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيوش .

(٣) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤١٧ (٤) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار

بني أيوب ج ٢ ص ٤٤٠ . (٥) Sir William Muir. Op. Cit. p. 33. (٦)

(٦) المقریزی : السلوك ص ٦٥٦

على أن الأمير قلاوون لم يقصد بامتناعه عن تولية سلطنة مصر احترام مبدأ وراثية العرش، ولكنه كان يرمى من وراء ذلك إلى إتاحة الفرصة له حتى يستطيع إخماد نار الفتنة التي أشعلها الظاهرية أنصار الظاهر بيبرس الذين كانوا يكونون أغلبية الجيش، وإبعاد الأمراء الموالين لأسرة بيبرس عن مناصب الدولة. وقد لقي قوله قبولا لدى الأمراء فولوا سيف الدين سلامش بن بيبرس سلطنة مصر — وله من العمر سبع سنين — ولقب بالملك العادل، وعينوا الأمير قلاوون أتابكاً له، فقبض قلاوون على زمام الأمور في البلاد واتهم فرصة صغر سن سيف الدين سلامش وأخذ يعمل على خلعه ليحل محله في عرش مصر فقبض على الأمراء الظاهرية واستقال إلى جانبه المماليك الصالحية موالى الملك الصالح أيوب فمنحهم الاقطاعات وولاهم بعض الولايات.

ولما اطمأن بال قلاوون من ناحية مناوئيه جمع أمراءه وتحدث معهم في صغر سن الملك العادل وقال لهم: «قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل» فانفقوا على خلع سلامش وبعثوا به إلى الكرك وعينوا الأمير قلاوون سلطاناً على مصر^(١). وهكذا انتقلت السلطة من بيت بيبرس إلى بيت قلاوون. وهذا يثبت لنا أن مبدأ وراثية العرش لم يكن مقبولاً لدى أمراء المماليك. فقد حتمت عليهم تشاؤهم أن تكون مؤهلات السلطنة عندهم المهارة الحربية وكثرة الأتباع. وقد استعان بيبرس في إدارة شئون دولته بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب، كما أنه أحيى وظيفة نائب السلطان التي ابتدعوها في عهد الدولة الأيوبية وذلك لكثرة تغيبه عن مصر ولرغبته في أن ينوب عنه بها أثناء اشتغاله بالحروب الخارجية أحد كبار رجال دولته. فكان هذا النائب يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ويشترك معه في توزيع الاقطاعات وترشيح الأكفاء لمناصب الدولة ولا تتسع سلطته سمي «كافل المالك والسلطان الثاني»^(٢).

(١) المقرئى: السلوك ج ١، القسم الثاني ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

كذلك اتخذ بيبرس وزيرا له ؛ وكان يستشير في أمور الدولة ، كما كان واسطة بينه وبين الرعية ، وكان عليه تنفيذ رغبات السلطان وأوامره وإسداء النصيح والإرشاد له إذا ما استأنس برأيه في أمر من أمور الدولة . غير أنه لم يكن يتمتع بكامل سلطته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه وتدخله في تعيين كبار موظفي الدولة . وقد تولى الوزارة في عهده الصاحب بهاء الدين بن حنا . وكانت له منزلة سامية يدلنا على ذلك تلك الرسالة التي خاطبه بها محيي الدين بن عبد الظاهر عند ما كان مع بيبرس في قيسارية سنة ٦٧٥ هـ ؛ فقد وجه إليه عبارات تدل على ما كان لهذا الوزير من مقام لم يرتفع إليه غيره ومنزلة لم يسم إليها سواه . وقد تكفل صاحب صبح الأعشى بذكر هذه الرسالة ^(٢) .

وكان يرافق السلطان في أسفاره وحروبه وزير آخر يعرف باسم وزير الصحبة وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة مقر عمله .

وقد ظلت الوزارة قائمة في ذلك العصر حتى ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر فلم يتخذ له وزيرا واعتمد على « ناظر الدولة » في إدارة شؤون البلاد . وكانت رتبته تلي رتبة الوزارة ويعاونه في عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفين وهؤلاء رئيس يسمى « مستوفى الصحبة » وكانت مهمته إعداد المراسيم الخاصة بتنظيم شؤون الدولة وتعيين صغار الموظفين ^(٣) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد ألغى الناصر وظيفة نائب السلطان واضطلع بما كان يقوم به النائب والوزير ، كما استحدث وظيفة « ناظر الخاصة » وكانت مهمة القائم بأعبائها في أول الأمر مقصورة على إدارة أموال السلطان ؛ غير أنه لم يلبث أن ازداد نفوذه لكثرة تقربه من السلطان فأصبح يتدخل في أموره الخاصة ^(٤) .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣ (٢) القلقشندى : ج ١٤ ص ١٣٩ — ١٦٥

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٤

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

مما تقدم نرى كيف أن سلاطين المماليك في ذلك العصر لم يعنوا بأن يتخذوا لهم وزراء يعاونونهم في إدارة شؤون الدولة كما كانت الحال في عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية؛ فأضعفوا أولا من نفوذهم ثم استبدلوا بهم بعض كبار الموظفين؛ فأصبح كل من « ناظر الدولة » و « ناظر الخاصة » يقوم بمهام الوزارة . ولعلمهم عمدوا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقويض سلطتهم وخلعهم من عروشهم كما كانت الحال في أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .

وقد ملأ بيبرس بلاطه بكثير من الموظفين نخص بالذكر منهم « الحاجب » وكانت مهمته إدخال الناس على السلطان حسبما تقضى الضرورة بالسماح لهم بالمشور بين يديه مراعىا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولم تقف مهمته عند هذا الحد بل كان يفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود ، وذلك بعد استشارة السلطان أو نائبه؛ ثم أخذت سلطته تتسع تدريجيا حتى أصبح يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر طبقا لأحكام الياسة التي وضعها جنكرخان^(١) .

وهناك موظفون آخرون يلون الحاجب في المكنانة وهم « الاستادار » و « الدوادار » و « الأميرجاندار » . وكان يعهد إلى الأول إدارة البيوت السلطانية ،

(١) كان هؤلاء المغول على الرغم من استيطانهم مصر واعتناقهم الدين الاسلامي لا يزالون متأثرين بأحكام الياسة ؛ وقد أظهروا رغبتهم في العودة الى اتباعها . وفي ذلك يقول المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢١ " واحتاجوا (المغول) في ذات أنفسهم الى الرجوع لعادة جنكرخان والافتداء بحكم الياسة ؛ فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم (كذا في الأصل) والأخذ على يد قويمهم وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى الياسة " .

(٢) كان جنكرخان قد وضع بعض تشريعات للمغول وأثبتها فى كتاب سماه « ياسة » . ومن أهم ما جاء فيه أنه نص على قتل من يزنى ومن يتعمد الكذب ومن يتجسس ومن يدخل بين اثنين يتخاصمان ويعين أحدهما على الآخر، ومن يبول فى الماء أو على الرماد أو من يعطى بضاعة ويخسر فيها ، ومن يطعم أسير قوم أريكسوه بغير إذنبهم ، ومن يجد عبدا هاربا أو أسيرا ولا يردده ؛ ومن يقع قومه أثناء القتال ، ومن يردده من الأمراء على أى فرد من الأفراد خلاف الملك . فضلا عن ذلك فإنه قررا ألا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤونة ولا كلفة ؛ وألزم أفراد رعيتيه باحترام جميع الملل والمذاهب . المقرئى :

ويبلغ الثاني الرسائل للسلطان ويقدم إليه المنشورات للتوقيع عليها . أما الثالث فمهمته الوقوف على باب السلطان واستئذانه في استقبال كبار رجال الدولة وأعيانها^(١) .

وقد أحدث بيبرس إلى جانب ذلك وظائف أخرى منها "رأس نوبة الأمراء" و "أمير المجلس" و "أمير السلاح" . وكان يتولى الأول الرئاسة على أمراء الدولة ، ويعهد إليه بمحاكمة المماليك السلطانية . أما "أمير المجلس" فكانت مهمته حراسة السلطان ، وازداد قربه منه حتى أصبح يحرسه في داخل قصره بل وفي حجرة نومه . واختص "أمير السلاح" بالإشراف على مخازن الأسلحة ومعدات الحرب^(٢) .

وكان للسلطان ولاية ينوبون عنه في إدارة شئون الدولة المصرية ، ومهمتهم تنفيذ الأوامر الصادرة منه وجمع الخراج والرسوم الجمركية . وكانت الأسكندرية أعظم الولايات شأنًا في ذلك العصر لأهميتها التجارية ، وكذلك نجر عيذاب أحد ثغور مصر على البحر الأحمر وكانت تمتاز بتجارة الشرق . وكان الوجه القبلي مقسما إلى عدة ولايات ؛ ومن أهم ولاياته : قوص والأشموين والبهنسا والجيزة . أما الوجه البحري فأهم ولاياته : بلبيس ومنوف والمحلة الكبرى ودمهور وقلوب ودمياط^(٣) .

ومن الوظائف الهامة التي ظهرت في هذا العصر وظيفة «الولاية» ؛ وهي تقابل ما يعرف في العصر الإسلامي الأول بالشرطة^(٤) . ومهمة صاحبها حفظ النظام والقبض على الخناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التي تكفل سلامة الجمهور .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ السبوتى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ السبوتى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥

(٣) كان يطلق على الأسكندرية في عهد الظاهر بيبرس ولاية الأسكندرية ، ثم أطلق عليها نيابة الأسكندرية في أيام الظاهر برقوق . وكان في عهده ثلاث نيابات : نيابة الأسكندرية ، ونيابة الوجه القبلي ، ونيابة الوجه البحرى . القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٤ — ٢٥

(٤) القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٦ — ٢٨

(٥) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣

وكان يقوم بأعباء هذه الوظيفة في عصر بيبرس ثلاثة أمراء، يتولى أحدهم المحافظة على الأمن بالقاهرة وفض المشا كل التي تحدث بين سكانها، ويعهد إلى الثاني بأداء مثل هذا العمل بالفسطاط. أما الثالث فكان يلى شئون القرافة^(١). ولعله كان يحفظ النظام أثناء مرور الجنازات ويراعى الآداب العامة في زيارات القبور وخاصة أيام المواسم والأعياد، كما كان يقوم بحراسة القبور خشية أن يعيث بها اللصوص. وإلا فليس من المعقول أن يتساوى وإلى القرافة مع وإلى كل من الفسطاط والقاهرة ان لم يكن في القرافة عمل يساوى عملهما.

وكان "صاحب العسس" بالقاهرة يتولى الاشراف على مطافئ الحريق بها، فيجلس بعد صلاة العشاء أحيانا بمحطة المطافئ التي اتخذها المماليك بسوق الجمون الكبير بالقرب من حارة الجندرية بالغورية. وكان يوضع أمامه مشعل يشعل بالنار طول الليل، ومعه السقاءون والنجارون وغيرهم من العمال خشية حدوث الحريق بالليل فيبادرون إلى إطفائه^(٢).

ديوان الإنشاء - وجه بيبرس عنايته إلى ديوان الإنشاء لكثرة المحالفات والمعاهدات التي عقدها مع الملوك والأمراء المعاصرين له وما ترتب على ذلك من تبادل الرسائل بينه وبينهم.

وكان هذا الديوان يتكوّن من طبقتين من الكتاب، تعرف الطبقة الأولى منهم بكتاب الدست^(٣)، ومهمتهم قراءة القصص على السلطان بعد أن يفرغ من قراءتها رئيس الديوان، وذلك حسب ترتيب جلوسهم بدار العدل. وكانوا في عهد الملك الظاهر ثلاثة أرفعهم قدرا محيي الدين بن عبد الظاهر. أما الطبقة الثانية فتعرف بكتاب الدرج^(٤)، وهؤلاء كانوا يقومون بكتابة ما يدونه صاحب الإنشاء وتاب

(١) التلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣ (٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٠٣

(٣) سموا بذلك جلوسهم للكتابة بين يدي السلطان . (٤) عرف هؤلاء الكتاب بهذا الاسم

لكتابهم الرسائل والمنشورات على ورق مستطيل مركب من عدة أوصال .

الديست على القصص وغير ذلك من المكاتبات والمراسيم^(١) . وكان عددهم يزداد كلما ازداد عدد كتاب الديست .

وقد تولى رئاسة ديوان الإنشاء في أيام الملك الظاهر نحر الدين بن لقمان ، وهو من الكتاب الذين اشتهروا بسعة الاطلاع في الأدب وامتازوا بالمقدرة في فن الإنشاء . وكانت مهمته تسلم المكاتبات الواردة وعرضها على السلطان لبحثها واعتمادها ثم كتابة أجوبتها^(٢) .

وكان رئيس هذا الديوان يلقب الى ذلك الوقت بصاحب ديوان الإنشاء ؛ غير أن هذا اللقب لم يلبث أن تغير عندما ولي الديوان القاضي فتح الدين بن القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون ؛ فلقب بكتاب السر ، وصار منذ ذلك الوقت يلقب بهذا اللقب كل من ولي ديوان الإنشاء^(٣) .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الديوان في ذلك العصر كان يقوم مقام وزارة الخارجية في الوقت الحاضر ، إذ كانت ترد اليه المكاتبات من جميع أنحاء الولايات والممالك التي كان بينها وبين مصر بعض العلاقات ، كما كانت تحرر به الكتب التي يرسلها السلطان الى حلفائه . وقد ازداد نشاطه في أيام الملك الظاهر لكثرة المراسلات التي تبودلت بينه وبين الملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له .

البريد — تنبه بيبرس الى منفعة البريد فوضع له نظاما ارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء مملكته بشبكة خطوط من البريد البري والبحوي . وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل^(٤) ؛ ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية الى أنحاء

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ (٢) السبوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣١ (٣) المقرئ : خطط ج ٢ ص ٢٢٦ (٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ (٥) كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق برية تمتد إحداها الى قوص وآخر الى عيذاب وثالث الى الاسكندرية ورابع الى دمياط ومنها الى غزة . القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٣

امبراطوريته ، وإليها ترد الرسائل من الحكام والتقارير من ولاية الأقطار بانتظام حتى أصبح البريد في عهده يرد على مصر مرتين في الأسبوع ؛ ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالاً ضخمة في سبيل ترتيبه ^(١) .

وقد زوّد بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف ، كما راعى فيها توفر المياه أو وجود قرية بجوارها يستأنس بها عمال البريد ^(٢) ، وأعدّ بكل منها خيولاً لا يسمح بركوها إلا بمرسوم سلطاني ^(٣) .

وكان يشرف على إدارة البريد صاحب ديوان الإنشاء ؛ فقد عهد إليه حفظ ألواح البريد بالديوان ^(٤) ، فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات أعطى لوحاً من تلك الألواح ليعلقه بعنقه في ذهابه وإيابه ^(٥) .

وكان البريديون ينتخبون عادة من خدام الساطان ذوي الكفاية والذكاء لا بلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ؛ وكانت لهم مكانة محترمة .

ولم يقتصر بيبرس على البريد العادي في إرسال رسائله بل استخدم الحمام الزاجل ؛ وكان له أبراج بالقلعة ومراكز معينة في جهات مختلفة كمرکز البريد البري ، لكنها تزيد عنها في المسافة . فإذا نزل بها الحمام ينقل البراج ما على جناحه إلى طائر آخر ليوصله إلى المنزل التي تليها ^(٦) .

وكان الإيجاز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل ؛ فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٤٦ — ٤٤٧ (٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٢ (٣) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ١٠٨ (٤) كانت هذه الألواح من الفضة وقد نقش على أحد وجهي كل لوح منها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله واوكره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة " . وعلى الوجه الآخر : " عز مولانا السلطان ... سلطان الاسلام والمسلمين " .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ١٤ ص ٣٧١

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩١

في ذلك العصر ، ويكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب في صيغة مقتضبة كالتى تستعمل في البرقيات في وقتنا هذا .

وكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها . وقد جرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقة أن تكتب الرسالة من صورتين ترسلان مع حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى ، حتى إذا ضلت إحداهما أو قتلت أو افترسها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الأخرى . وقد جرت العادة أيضا ألا يطلق الحمام في الحقو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي^(١) .

وكان حمام البريد السلطاني يميز بعلامات خاصة كبصم منقاره ببصمات خاصة أو قص ريشه بطرق معروفة؛ فإذا وصل إلى قلعة الجبل ببطاقة تولى السلطان قطعها بنفسه . وهذا يدل على مبلغ اهتمام بيبرس وحرصه على الوقوف على كل ما يتجدد في أنحاء امبراطوريته فيأخذ حذره ويستعد للطوارئ .

٢ - القضاء

حرص بيبرس على إقامة العدل بين رعاياه ومعاملتهم بالمساواة؛ فتولى بنفسه النظر في المظالم وأقام لذلك دار العدل التي كان يتولى رئاستها ويجلس بها للفصل في قضايا رعيته في يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وحوله قضاته الأربعة الذين كانوا يمثلون أئمة الاجتهاد، وكبار موظفيه المسالين والإداريين وصاحب ديوان الإنشاء^(٢) .

وكان قاضى القضاة في مصر عند ما تولى بيبرس العرش بدر الدين السنجارى ، فعزله الملك الظاهر في سنة ٦٥٩ هـ ، وفوض قضاء القضاة بديار مصر لتاج الدين

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢ ؛ تاريخ البريد في مصر (مصلحة البريد) ص ٤٣ - ٤٤

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ ؛ Stanley Lane-Poole, A History of

Egypt in the Middle Ages p. 246.

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩

عبد الوهاب بن بنت الأعز^(١) ، وكتب له بذلك تقليدا جاء فيه ” ... رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى زاد الله فى علائه ... أن نفوض إليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية المحروسة لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره تجنى ومساع حميدة ما برح به إلى الخلائق محسنا ... فليباشر هذا المنصب الذى أضحى ظل شرفه وارفا ... وليول من القضاة من يحبى من الحق سننا ويميت (ويمت فى الأصل) من الباطل بدعا ... ولينفقد أمر العدول الذين أصبحوا على الحقيقة عدولا من المنهج القسويم راغبين عن المحامد بما يأتونه من كل وصف ذميم . ولا يترك منهم إلا شاهدا كان على (المعاييب) غائبا أو متورعا ... وأموال الأيتام والأوقاف فلا يباشرها إلا من كان لمباشرتها أهلا ومن يتحقق أن يكون عليها قفلا ... ورعينا بك حق الرعية ، فلا تخل أمورهم من مراعاتها . وأمض عزيمتك فى إقامة منار الشريعة بعد القعود ... وقد قررنا لك من الجامكية والجرارية ما كان مقررا لمن تقدمك ، وهو فى كل شهر أربعون دينارا وخمسة وعشرون أردبا غلة نصفين ... “^(٢)

على أن تاج الدين لم يظل منفردا بالقضاء فى مصر بل أشرك معه السلطان فى هذه السنة برهان الدين السنجارى . وصار الأول مختصا بقضاء القاهرة والوجه البحرى ؛ أما الثانى فاختص بالنظر فى قضاء مصر والوجه القبلى . ولم يمض على ذلك وقت

(١) ولد تاج الدين سنة ٦٠٤ هـ ببلدة دميرة بمديرية الغربية . ومات أبوه وهو صغير فى ذى القعدة سنة ٦١٢ هـ ؛ فربى فى حجر جده لأمه الصاحب الأعز نجر الدين مقدم . ولما بلغ أشده درس القرآن والحديث وتعلم الحساب بالاسكندرية ففهر فيه لفرط ذكائه ؛ فولاه الملك الكامل شاهدا لبيت المال وظل فى وظيفته هذه حتى تولى عرش مصر الملك الصالح أيوب فولاه نظرا للدواوين ، ثم تولى قضاء مصر سنة ٦٥٤ هـ بعد عزل بدر الدين السنجارى . ولم يلبث أن عزل تاج الدين وأعيد بدر الدين إلى القضاء وولى ابن بنت الأعز الوزارة فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ ، ثم عزله الملك المظفر قطز فى نفس هذه السنة ، وظل بعيدا عن مناصب الدولة حتى أعاده الملك الظاهر بيبرس إلى القضاء فى عاشر جمادى الأولى سنة ٦٥٩ هـ ، وظل يتولى القضاء فى مصر إلى أن عاجلته منيته فى الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ٦٦٥ هـ . ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٧٦ — ١٧٨

(٢) الويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ٨ — ١٢

طويل حتى عزل الملك الظاهر برهان الدين سنة ٦٦٠ هـ، وقلد تاج الدين القضاء بديار مصر كلها^(١).

وفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) أدخل بيبرس تعديلا جوهريا على النظام القضائي بمصر، فبعد أن كان يتولى القضاء قاض واحد، عين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة^(٢). ويرجع السبب في ذلك إلى تعنت تاج الدين وتشدده في أحكامه، فقد حدث أن استشاره السلطان في قضية رفعت إليه بدار العدل من بيت الملك الناصر تضمن أنهم ابتاعوا دارا من القاضي بدر الدين السنجاري، وأن ورثته ادّعوا بعد وفاته أنه موقوف. فأجاب القاضي بأنه إذا ثبتت الوقفية يستعاد الثمن من تركة البائع، فقال السلطان: فإن عجزوا عن الثمن؟ قال: يظل الوقف على أصله؛ فامتعض بيبرس منه. وفي هذه الأثناء قدم رسول صاحب المدينة المنورة وقال: يا مولانا السلطان! سألت هذا القاضي أن يسلم إلى المال الذي تحت يده من الوقف لأنفقته في فقراء المدينة فلم يفعل؛ فسأل السلطان القاضي عن ذلك، فقال القاضي: صدق هذا الرجل؛ أنا لا أعرفه ولا أسلم المال إلا لمن أعرفه... فإن سلمه السلطان أحضرته بين يديه. فقال السلطان: تخرجه من عنقك وتجعله في عنقي لا تسلم المال إلا لمن نختاره ونرضاه. ثم تقدّم بعض الأمراء وقال: شهدت عند القاضي فلم تسمع شهادتي في ثبوت الملك وصحته؛ فسأل السلطان القاضي عن ذلك؟ فقال: ما شهد أحد عندي حتى أثبته، فقال الأمير إذا لم تسمع قولي فمن تريد؟ قال السلطان: لم لم تسمع قوله؟ فقال: لا حاجة في ذكر ذلك. فقام الأمير جمال الدين أيدغدى وقال: نحن نترك مذهب الشافعي لك ويولى السلطان من كل مذهب قاض؛ فوافقته بيبرس على ذلك وأقرّ القاضي

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥ و ٧٢؛ السيوطى : حسن المحاضرة

ج ٢ ص ٩٩

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥؛ Stanley Lane-Poole, p. 274.

تاج الدين بن بنت الأعز في قضاء الشافعية، وولى الشيخ شرف الدين أبا حفص عمر بن عبدالله بن صالح السبكي قضاء المالكية، والقاضي بدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية، والقاضي شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين ابراهيم القدسي قضاء الحنابلة، وكتب لكل منهم تقليدا وأجاز لهم أن يولوا نوابا عنهم بأحاء الديار المصرية،^(١) وأضاف إلى اختصاصات القاضي تاج الدين النظر في ديوان الأحباس وأموال الأيتام والورثة. وعلى الرغم من أن سلطة هذا القاضي ضعفت بعض الشيء على أثر هذا النظام الجديد الذي وضعه الملك الظاهر، فإن بقية القضاة ظلوا يترددون عليه ويعظمونه ولا يتكلم أحد منهم في مجلس السلطان غيره.^(٢)

وكان بمصر إلى جانب هؤلاء القضاة قاض آخر للعسكر يحضر بدار العدل مع القضاة الأربعة ويسافر مع السلطان أنى سافر. وكانت مرتبته في الجلوس بدار العدل بالقرب من السلطان دون مرتبة قضاة المذاهب.^(٣)

٣ - الجيش والبحرية

تغيرت حال الجيش المصرى أيام المماليك وخاصة في عهد بيبرس عما كانت عليه في أيام الدولة الأيوبية. فقد اتخذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا من الأكراد ظل عدة الدولة الأيوبية حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب فاقضى عددا كبيرا من المماليك كان معظمهم من الأتراك.^(٤) ويرجع السبب في ذلك إلى المنافسة التي قامت على الملك بينه وبين أخيه العادل الذي كان يرى أنه أولى منه بالملك، فقبض عليه العادل وحبس به بقلعة الكرك، فتفرق عنه جيشه الكردي، ولم يبق

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١١٥ - ١١٧؛ المقربرى : السلوك ج ١

القسم الثانى ص ٥٣٨ - ٥٤٠ (٢) ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٨١

(٣) الفلقشتندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ (٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٠

(٥) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p.

معه غير مماليكه وكانوا نحو الثمانين وطائفة من خواصه تبلغ العشرين ، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه . فلما تولى الملك بعد أخيه العادل رعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد ، فاستكثر من شرايهم^(١) ، وبني لهم قلعة بجزيرة الروضة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وغير ذلك من الأزواد والأقوات ، كما أنشأ بها جامعا وستين برجا . وعندما تم بناؤها انتقل إليها بحريه وأهله ، واتخذها دارا للك وأسكن فيها مماليكه البحرية .

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالممالك حتى زالت دولة بني أيوب وتولى المعز أيك سلطنة مصر ، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل ، وظل الحال على ذلك حتى ولي الظاهر بيبرس عرش مصر ، فاهتم بعمارة قلعة الروضة وإعادتها إلى ما كانت عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولما تم بناؤها أسكن الأمراء في أبراجها^(٢) .

ولما ولي المنصور قلاوون سلطنة مصر (٦٨٧ - ٦٨٩ هـ) [١٢٨٠ - ١٢٩٠ م] ، نقل الممالك إلى قلعة الجبل . وما زال يعنى بشئونهم حتى إنه كان يتذوق طعامهم بنفسه في كل يوم . ولم يكن يسمح لهم بمغادرة القاعة ليلا ولا نهارا إلى أن ولي الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ - ١٢٩٣ م] ، فسمح لهم بالخروج منها نهارا ومنعهم من المبيت خارجها . ثم بنى الناصر محمد بن قلاوون فيما بعد الطباق بساحة الإيوان بقلعة الجبل وجعلها مقرا للممالك السلطانية ، وسمح لسائر الممالك بالخروج مرة في الأسبوع إلى الحمام ، فكانوا يتناوبون ذلك مع الخدام ثم يعودون إلى القلعة آخر النهار^(٣) .

(١) المقرزى : خطط ج ٢ ص ٢٣٦

(٢) المقرزى : خطط ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨١ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢

ص ٢٠٠ - ٢٠٣

(٣) المقرزى : خطط ج ٢ ص ٢١٣

وقد وجه بيبرس عنايته إلى إعداد جيش قوى يكون عاتقه وقت الحروب؛ فأخذ يستكثر من شراء المماليك الذين يصلحون لهذه المهمة الخطيرة التي كانت تتطلبها البلاد في ذلك العصور وهي محاربة أعدائه من الصليبيين والمغول، كما عني بتربيتهم تربية دينية وعسكرية بأن عين لكل طائفة منهم فقيها يعلمهم القرآن ومبادئ الدين والقراءة والكتابة حتى يصلوا إلى سن البلوغ، ثم يمتزوا بعد ذلك على الأعمال الحربية، فإذا ما أتموا تعليمهم ألحقوا بجيش السلطان^(١).

وكان هذا الجيش يتكون من المماليك السلطانية وجنود الحلقة. ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها: فالمماليك السلطانية هم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأقربهم إلى السلطان ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة. أما جنود الحلقة فكان لكل أربعين جنديا منهم رئيس لا يحكم له إلا إذا خرجوا للقتال؛ فعليه ترتيبهم في مواقفهم وليس له أن يخرج أحدهم من الخدمة إلا بإذن السلطان أو نائبه^(٢).

وكان جنود هاتين الطبقتين يلبسون على رؤوسهم الكواتات الصفراء بغير عمامة، كما كانوا يلبسون على أبدانهم أقمية بيضاء ضيقة الأكم من القطن البعلبكي — وفي بعض الأحيان تكون حمراء أو زرقاء — ويشدون على أوساطهم بنودا من القطن^(٣).

أما عن الأسلحة التي كانوا يستعملونها في حروبهم فمنها السيف والرمح والقوس والشباب. وهناك أدوات حربية استعان بها الملك الظاهر في حروبه ضد الصليبيين والتتار؛ نخص بالذكر منها المجانيق والدبابات ذوات العجل والزحافات والقطاطيع التي كان يهدم بها أسوار القلاع التي يستولى عليها^(٤).

(١) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ — ١٥

(٣) وهي أغطية للرأس تلبس وحدها أو بعمامة.

(٤) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٩٨

(٥) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٥١٢ و ٥٢٥ — ٥٢٧

ولم تكن هناك مرتبات ثابتة لهؤلاء الأمراء والأجناد، بل أستعيض عن ذلك بأقطاعات كان يمنحها السلطان لهم . وكان المقطع منهم يحل في الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته ، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها أو بسبب وفاة المقطع .

على أن بيبرس كثيرا ما كان يكافئ أمراءه وجنوده الأوفياء بأن ينزل لورثتهم عن حقه في إقطاعاتهم . ولا أدل على ذلك مما فعله بعد وفاة الأمير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ببلاد الشام وعندما أسر الفرنجة الأمير شجاع الدين والى سرمين^(١) فإنه أعطى ابن الأول إقطاعه وأبقى إقطاع الثانى بين إخوته وغلمانه^(٢) .

ولم تكن هذه الإقطاعات هى الشئ الوحيد الذى كان يمنحه السلطان لأمرائه وأجناده ، بل كان لهم نصيب معين فى الغنائم ، كما كان لهم رواتب أخرى من اللحم والتوابل والعليق والزيت لا علاقة لها بالإقطاع ، فهى هبة من السلطان ، وكانت تصرف فى بعض الأحيان لمن لا إقطاع له من أولاد الأمراء^(٣) .

البحرية — لم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند حد اهتمامه بتكوين هذا الجيش ، بل رأى على أثر استقرار ملكه بمصر أنه فى حاجة ماسة الى انشاء أسطول قوى يستعين به فى صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر ، فعمل على إعداد قوة بحرية . وقد لاقى فى ذلك متاعب كثيرة يرجع معظمها الى كراهية أفراد رعيته للحروب البحرية . وكانوا قبل ذلك يرغمون على الاشتغال فى الأسطول اذا دعت الضرورة الى تجهيزه . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أصبحت خدمة الأسطول فى عهد الدولة الأيوبية وفى أوائل عهد المماليك عارا يسبب به الرجل ، فاذا

(١) بلدة من أعمال حلب . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) المقرزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩ .

(٣) المقرزى : خطط ج ٢ ص ٢١٦ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١ .

قيل لرجل يا أسطولى غضب غضبا شديدا . وقد ظل الحال على ذلك حتى تولى بيبرس عرش مصر فاهتم بإعادة شأن الأسطول الى ما كان عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ومنع الناس من أن يتصرفوا في أخشاب السفن ، كما أمر بإعداد الشوانى فى نغرى الاسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه الى دار الصناعة بمصر ويشرف على تجهيزها . وقد تسنى له بذلك أن يعد أسطولا مكونا من أربعين قطعة حربية سيره الى جزيرة قبرس سنة ٦٦٩ هـ ؛ غير أنه لم يلبث أن تحطم بالقرب منها^(٢) . ولما علم بذلك بيبرس شرع فى إنشاء أسطول آخر وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده^(٣) .

وهكذا نجح بيبرس فى العمل على إعادة شأن الأسطول الى ما كان عليه فى عهد الدولة الأيوبية . وجاء سلاطين المماليك من بعده واقتدوا به فى عناية ببناء المراكب الحربية ؛ فاهتم الأشرف خليل بن قلاوون على أثاره سلاطين مصر (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ - ١٢٩٣ م] بإنشاء أسطول قوى . ولما كملت عدته الستين مركبا أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال ، وسار الى « دار الصناعة » بجزيرة الروضة لاستعراض الأسطول ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا أقبل اليه الناس من كل حدب وصوب ، وازدحمت الطرق والميادين بالأهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة هذا الاحتفال . ولما أقبل السلطان خرجت الشوانى والحراريق^(٤)

(١) لعل هذه الكراهية وهذا التعبير بكلمة أسطولى إنما أتى الى المصريين والمماليك من جهة أن الجيوش الصليبية التى حملت على مصر والبلاد الاسلامية كانت تأتي فى أساطيل غالبا . فاذا قالوا للرجل يا أسطولى فكأنهم قالوا له أنت مثل هذا الرجل الذى أتى فى الأساطيل . (٢) المقرزى : خطط

ج ٢ ص ١٩٤ (٣) المقرزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٩٥

(٤) الشوانى : جمع شونى أو شينى . وهى أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول وأعظمها شانا وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاع للدفاع والهجوم . وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والمهام ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف . (٥) الحراريق : جمع حراقة ، وهى مركب حربية كبيرة كانوا يحملون فيها البارود والنفت ؛ ولهذا كانت تسمى حراقة نقت أو حراقة بارود .

والطرائد^(١) واحدة بعد أخرى . وعلى كل من الشوانى برج وقلعة ؛ وتبارى الجند "وما منهم إلا من أظهر عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه" ، ثم رجع السلطان في عسكره الى القلعة ، وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم في لهو ومرح .^(٢) ومن هنا نتبين مقدار ما وصلت اليه مصر في ذلك العصر من التقدم في ميدان الصناعة الحربية والبحرية ، ومبلغ اهتمام سلاطين المماليك بأمر الأساطيل الحربية ، حتى ظهرت مصر بالمظهر اللائق بها بين الدول البحرية وخشى بأسها الأمم المجاورة لها ، ولا سيما بقايا الصليبيين ببلاد الشام الذين بعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون صلاحها .

٤ - الحضارة المادية

عمل بيبرس على تنمية موارد الثروة في مصر ، فعنى بترقية الزراعة والصناعة والتجارة فعم الرخاء وامتلات خزائنه بالمال . وقد تيسر له بذلك أن يعتد جيشا قويا يصتد به غارات الصليبيين والمغول التي تطلبت منه أموالا كثيرة ، كما استطاع بفضل هذه الثروة أن يقوم بكثير من الاصلاحات في أشحاء الديار المصرية ، وخاصة بقلعة الجبل والقاهرة التي ظهرت في عهده بمظهر القوّة وفاقت غيرها من مدن العالم الاسلامي في العظمة وال عمران ؛ فكانت دورها محكمة البناء وأسواقها ملاءى بالطرف النفيسة والأهالى يرتعون في بحبوحة من العيش .

(١) الزراعة — وكان للزراعة المحل الأول من رعاية بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك ، فأقاموا مقاييس النيل وأنشأوا الجسور في كافة أرجاء البلاد . وكانت هذه الجسور على نوعين : الجسور السلطانية وهي الجسور التي يعود نفعها على البلاد عامة ؛ ويتولى صيانتها أمراء الولايات فيصرفون عليها مما يجبونه من مال الخراج ، وما بقي منه يرسلونه إلى خزانة بيت المال . أما النوع الثاني فهو الجسور

(١) الطرائد هي سفن خاصة بمحل الخيول ؛ وكانت تسع نحو أربعين فرسا ، وربما وصلت الى ثمانين فرسا .

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

البلدية ؛ وهي الجسور التي تعود منفعتها على ناحية من النواحي ، ويتولى صيانتها المقطعون والفلاحون وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر .^(١)

وقد وجه بيبرس عنايته إلى كرى الترع وتطهير الخلجان ؛ كما اهتم بإنشاء القناطر ، فبنى قنطرة على بحر أبي المنجا بناحية ^(٢) بيسوس بمديرية القليوبية ، كما بنى قنطرة على ترعة شبرامنت بالجيزة ؛^(٤) فتمت بذلك ثروة البلاد وازدادت محصولاتها .

وكان يزرع بأرض مصر القمح ، وتكثر زراعته ببلاد الصعيد ، وتتراوح غلة الفدان الواحد من أردبين إلى عشرين ، كما كان يزرع بها أيضا الشعير والبقول والحمص وكذلك الكتان — وكان من أهم مزروعات مصر في عصر المماليك — ويزرع القرط (وهو غذاء الدواب) إذا ما أخذ النيل في النقصان ؛ وكان يتراوح محصول الفدان الواحد بين أردبين وأربع وبيات . كذلك اشتهرت مصر في ذلك العصر بزراعة قصب السكر والقطن ، كما كثرت زراعة الخضروات كالباذنجان والمقاتي (الخيار والقثاء) والفجل واللفت والخس والكرب والفواكه : كالعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصية والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق والتوت والموز والزهور : كالورد والبنفسج والرجس والياسمين واللينوفر والريحان الفارسي على اختلاف أنواعه .^(٥)

وكان بالقاهرة وضواحيها كثير من البساتين نخص بالذكر منها بساتين اللوق التي عنى بيبرس بغرسها سنة ٦٦٢ هـ ، وبستان ابن ثعلب بالقرب من ميدان السلطان الصالح أيوب ، وبستان البورجي بالقرب من المقس . وكان يزرع بهذه البساتين جميع أنواع الفاكهة والأزهار .^(٦)

- (١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ (٢) يرجع تاريخ إنشاء هذه التربة إلى أيام الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥٠٦ هـ . وقد أشرف على حفرها أبو المنجا اليهودي فعرفت باسمه . المقرئزي : خطط ج ١ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ (٣) قرية صغيرة تقع على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط واسمها الحالي باسوس . على مبارك باشا : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٢٥
- (٤) المقرئزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٦٣٨ — ٦٣٩
- (٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٣ و ٤٥٣ — ٤٥٤
- (٦) المقرئزي : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(ب) الصناعة — كذلك كان للصناعة النصيب الأوفر من عناية بيبرس وخاصة ما كان متصلا منها بالحرب وأدواتها ؛ فإن الدولة المصرية في ذلك الحين كانت في حاجة إلى جيش قوى يحمي حدود امبراطوريتها الواسعة . وكان لابد من تامين هذا الجيش بالملابس والآلات الحربية .

وقد فطن بيبرس لذلك فوجه اهتمامه إلى ترقية مراكز صناعة المنسوجات ؛ فخص بالذكر منها مدينتي تنيس ودمياط التي برز سكانهما في عمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، كما اشتهرتا بجياكة الثياب المصنوعة من الكتان^(١) .

وكان يصنع بتنيس قصب ملون تتخذ منه العمام . أما دمياط فقد برز أهلها في صناعة القصب الأبيض ، وهو عبارة عن قماش من تيل رقيق . وكان يصنع بها أيضا نوع من القماش يسمى البوقلمون ذو ألوان براقة تلامأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، ويتغير لونه باختلاف ساعات النهار^(٢) . كذلك اشتهرت القيس والبهنسا بصنع المنسوجات الصوفية^(٣) . ومن هذه المراكز الصناعية كان السلطان يمد أفراد جيشه بالملابس ويخلع على أمراء دولته وأفراد حاشيته بما يناسب رتبهم .

أما الآلات الحربية وجميع لوازم التعبئة فكان لها أسواق بالقاهرة . وكثيرا ما كانت تزدهم هذه الأسواق بالأمراء والجنود . ويرتفع سعر الحديد وأجر الحدادين وصناع آلات السلاح في الوقت الذي يثخن فيه بيبرس الغارة على أعدائه ببلاد الشام ، وذلك لكثرة إقبال الناس على شراء آلات الحرب^(٤) .

وقد حافظت مصر على بعض الصناعات التي اشتهرت بها من عهد بعيد . ومن هذه الصناعات صناعة الفرش والبسط التي مهـر في صناعتها أهل دمياط

(١) القلقشندي : ج ٣ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ (٢) الهواري : رسالة في وصف

محتويات دار الآثار العربية ص ٩٠ (٣) المقریزی : خطط ج ١ ص ٢٠٤

(٤) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥١٢ و ٦٢٦

وكذلك صناعة السكر من القصب الذي كان يزرع ببعض جهات الوجه القبلي مثل ملوى وسمهود وقفط. وكانت هذه الصناعة في عصر بيبرس على ما يظهر لنا ناشئة؛ وقد بلغت أوجها في عهد الناصر محمد بن قلاوون. يتحدثنا المقرئ^(١) أنه كان بسمهود سبعة عشر حجرا لعصير القصب، كما كان بملوى عدة أحجار. وكان يسكن بهذه المدينة في عهد الناصر أسرة من أصحاب الأراضى تدعى أسرة أولاد فضل بلغت مساحة الأرض التي زرعوها قصب سكر ألفا وخمسمائة فدان في العام. وقد أودع أصحاب هذه الأراضى في مخازنهم اثنين وثلاثين ألف قنطار من محصول سنة ٧٣٨ هـ.

وكان الزجاج أيضا يصنع بمصر في عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك. ولا أدل على ذلك من هذه المشكاوات الزجاجية المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة، ومن بينها مشكاة من زجاج غير ملون على عنقها زخارف. وعلى البدن كتابة حمراء نصها: "مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحية تغمد الله صاحبها بالرحمة والرضوان". ويؤخذ من هذه الألقاب أنها عملت برسم تربة السلطان خليل بن قلاوون الذي قتل سنة ٦٩٣ هـ. وكذلك بالدار مشكاة أخرى على رقبتها آية قرآنية، وعلى بدنها اسم السلطان الناصر محمد ابن قلاوون، ومن بين زخارفها كثير من الطيور المتقنة الرسم^(٣).

وهناك صناعة أخرى غنى بها المصريون منذ عهد بعيد وظلت مستمرة في مصر في عصر المماليك وهي صناعة المعادن؛ فقد اتخذوا من الذهب الثريات والنوافذ لبيوت سلاطينهم. وليس أدل على ذلك من قاعة «البيسرية» التي بناها.

(١) المقرئ: خطط ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤

(٢) المشكاوات: جمع مشكاة وهي المصباح. وقد ورد في القرآن "الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح". [سورة النور]

(٣) الهوارى: رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية ص ١٠٣ — ١٠٦

السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في قصره سنة ٧٦١ هـ . فقد ذكر المقرئى^(١) أنه كان بها تسع وأربعون ثريا . وكان جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة ٢٢٠,٠٠٠ درهم كلها مطلية بالذهب . وكان ارتفاع بناء هذه القاعة ٨٨ ذراعا . وعليها برج مطعم بالعاج والأبنوس ، وبها شبابيك من الذهب الخالص . وكان بتلك القاعة قبة مصنوعة من الذهب تزن ٣٨,٠٠٠ مثقال . وقد أنفق على صنع هذه القاعة مليون درهم من الفضة وهذا يعادل ٥٠٠٠٠ دينار من الذهب .

وقد مهر الصناع المصريون فوق ذلك في صناعة الآنية . يتبين ذلك من هذه الهدية التي أرسلها بيبرس الى بركة خان سلطان مغول القفجاق والتي كانت تشتمل على كثير من الأواني الصينية^(٢) .

كذلك اهتم الممالك بصناعة الأدوية . وان في مارستان قلاوون الذي يعرف الآن بمستشفى قلاوون لمثلا حيا لارتقاء هذه الصناعة في هذا العصر . فقد بنى قلاوون سنة ٦٨٣ هـ بناء نفخا يحتوى على مارستان وقبة ومدرسة ، وأعد به غرفا متسعة فرشها بالأسرة للرضى من الفقراء والأغنياء على السواء ، وجعل بها قسما خاصا بالنساء ، كما خصص الايوانات الأربعة للرضى بالحجى ، وأفرد قاعة للصايين بالرمد وقاعة للجرحى وقاعة للصايين بالدوستناريا ، كما أنشأ به معملا كيميائيا أعدّه بكافة أنواع الآلات والأجهزة الطبية^(٣) .

ومن الصناعات التي أولاها بيبرس عنايته صناعة السفن . فقد أنشأ دورا لصناعتها بجزيرة الروضة وبثغرى الاسكندرية ودمياط^(٤) . وكان يذهب بنفسه

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢١١ - ٢١٢

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٢

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41

(٤) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ و ١٩٧

الى دار الصناعة بالجزيرة ويتفقد أمورها، كما كان يباشر إعداد المراكب الحربية قبل مسيرها لغزو البلاد الأجنبية .

(ج) التجارة - ولم تقتصر مصر على ما كانت تنتجه أرضها الحصبة من المحصولات وما كان يقوم به أهلها من الصناعات ، بل استفادت من موقعها الجغرافي ، فتبادلت التجارة مع غيرها من الدول في عهد بيبرس الذي عنى منذ توليته عرش مصر بنشر التجارة المصرية ، وعقد لذلك المعاهدات التجارية مع شارل صاحب أنجو (Anjou) وألفونس (Alfonso) أمير اشبيلية وجيمس ملك أرجونة .^(١) غير أن هذا الأخير لم يلبث أن قطع علاقته التجارية مع مصر بأن أصدر أوامره سنة ١٢٧٤ م بمنع تصدير المعادن وأدوات بناء السفن إليها . ويرجع السبب في ذلك إلى القرار الذي أصدره البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦ م) لأهالى مونتبيليه (Montpellier) بمنع التجارة مع المسلمين .^(٢)

ولما ولى قلاوون سلطنة مصر حافظ على العلاقات الودية ، التي أحكم أواصرها بيبرس مع سلطان مغول القفجاق وأمباطور القسطنطينية ، كما أبرم معاهدة دفاعية بينه وبين ألفونس صاحب قشتالة وجيمس ملك صقلية . كذلك وفدت عليه الوفود من اليمن تحمل الهدايا من الخصيان والفيالة وأنواع البغاء^(٣) . وكان لذلك أثره في استقرار تبادل التجارة بين مصر وهذه الدول .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عقد قلاوون معاهدة تجارية مع جنوة ، كما أرسل إليه حاكم جزيرة سيلان سفارة سنة ١٢٨٣ م ، ومعها كتاب تعذر على رجال

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p.266

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age

pp. 422. 423.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt

pp. 37-38.

حاشيته قراءته . وقد دعاه هذا الحاكم إلى تبادل التجارة مع جزيرته الغنية ، وذكر له في كتابه ما يمتلكه من السفن وما تنتجه جزيرته من المحصولات وما يصنع بها من المنسوجات وما يستخرج منها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة ، كما بين له أن المصريين سيجدون في جزيرة سيلان حاجتهم مما كان يستورد من بلاد الهند ، وأخيرا طلب من السلطان أن يعين مندوبا له بعدن . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى رغبة هذا الحاكم في تسهيل المبادلات التجارية بين البلدين .

وقد لقيت هذه الرغبة قبولا لدى قلاوون ، لأنه كان يبغى من وراء ذلك تشجيع التجارة مع الشرق . وكان كبيرس رجلا إداريا بعيد النظر ، فبذل جهدا كبيرا لجذب التجار إلى مصر ، كما أنشأ جوازات للتجار تكفل لهم الطمأنينة على أنفسهم وأموالهم في أسفارهم بين مصر والشام والهند وغيرها من البلدان .

وهكذا زادت تجارة مصر الخارجية في ذلك العصر بفضل المحالفات والمعاهدات التجارية التي عقدها كل من بيبرس وقلاوون مع الدول الأوروبية والشرقية ، وأيضا بسبب اتصال أوروبا بالشرق على أثر قيام الحروب الصليبية . فقد كان الأيوبيون ومن بعدهم من المماليك أصحاب النفوذ المطلق في سورية ، فوَقعت في قبضتهم جميع الموانئ وطرق القوافل بين أوروبا وبلاد الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى .

وكانت التجارة ترد إلى مصر من أوروبا عن طريق الإسكندرية ودمياط ، ومن الهند والشرق الأقصى عن طريق الخليج الفارسي نخلج عدن فالبحر الأحمر حتى عيذاب ، ومنها تحمل على ظهور الإبل إلى قوص ، ثم تنتقل في النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age p. 426

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 281.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨

وكان من أثر هذه السياسة التي اتبعها بيبرس لتسهيل سبل التجارة المصرية أن نشطت أيضا حركة التجارة الداخلية بمصر. فأصبحت أسواق القاهرة تموج بكار التجار، كما كانت الحوانيت تضيق بالمباعة في بعض الأحيان .

ومن أهم الأسواق التجارية التي كانت بالقاهرة في ذلك العصر سوق الفرائين وبياع به الفراء على اختلاف أنواعه، وسوق الجمون الصغير وبه كثير من حوانيت البزازين الذين يبيعون الأقمشة القطنية والكتانية، وسويقة أمير الجيوش^(١) وكانت من أهم أسواق القاهرة وتشتمل على عدة حوانيت للرفائين والرسامين، وسوق الشرايين^(٢) وكان يباع به الخلع التي كان يمنحها السلطان للأمرء والوزراء والقضاة وغيرهم من كبار رجال الدولة، وسوق الحلاويين وكان من أجهج الأسواق وتباع به الحلوى المصنوعة من السكر، وكانوا في ذلك العصر يتفننون في صنعها على عتة أشكال (وهي تشبه ما يصنع الآن في معامل الحلوى في المواسم والأعياد والموائد) . وإلى جانب هذه الأسواق كان بالقاهرة أسواق أخرى تليها في الأهمية وبياع بها الطرف والأمتعة والمأكولات .

(د) موارد الدولة المالية — ولقد سار بيبرس على سياسة تحقيق التوازن بين موارد دولته ومصارفها، فعين القاضي كمال الدين طاهر وكيلا لبيت المال وكلفه بالعمل على صيانتها والتصرف فيه لصالح الدولة المصرية .

(١) كان سوق الفرائين يقع بالقرب من الجامع الأزهر . أما سوق الجمون الصغير فكان بالقرب من باب النصر وتقع سويقة أمير الجيوش بين حارة برجوان وحارة بهاء الدين بن حنا .
(٢) سمي بذلك نسبة إلى الشرايين التي كانت تباع به وهي أغطية للرأس مثلثة الشكل تلبس من غير عمامة .

(٣) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٩٨ — ١٠١ و ١٠٣

(٤) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٣٧٨

وكانت المصادر الرئيسية لموارد الدولة في عهد الملك الظاهر تتحصر فيما يأتى :
 (١) الخراج - وكان يجبي على حسب غلة الأراضي . فكان أكثر خراج الوجه القبلى عينا ويتراوح ما يؤخذ من كل فدان يزرع قمحا أو شعيرا أو حمصا أو فولاً ما بين أردبين إلى ثلاثة ، وفي بعض الأحيان يؤخذ مع كل أردب درهم أو درهمان . أما الوجه البحرى فأغلب خراج أرضه نقدا . وكانت الضريبة تزيد وتنقص حسب إنتاج الأرض .

(٢) الزكاة - وكانت تؤخذ على الأغنام التي كثيراً ما كان يملكها قبائل عربية وتركمانية ، كما تؤخذ من أصحاب الأموال والتجار عن كل مائة درهم خمسة دراهم .

(٣) الجزية - وكان يدفعها أهل الذمة الذين يقيمون في القاهرة ، وتراوح بين عشرة دراهم وخمسة وعشرون درهماً عن كل شخص . وأما من كان يقطن منهم في خارجها فيأخذ المقطع الجزية المفروضة عليهم .

(٤) ما يفرض على التجار الأجانب القادمين إلى مصر وكان يؤخذ منهم العشر على بضائعهم .

(٥) ما يحصل من الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية التي تمر في ثغور عيذاب والاسكندرية ودمياط . وبجانب ذلك كان هناك ضرائب أخرى تفرض على التجارة التي ترسوها السفن على سواحل مصر في طريقها إلى بلاد الشام .

(٦) المعادن التي تستخرج من المناجم المصرية - وأهمها معدن الزمرد ويوجد بكثرة بالقرب من قوص - وكذلك معدن الشب بالواحات والنطرون . وكان يتولى استخراج هذه المعادن مباشرين وأمناء من قبل السلطان ، وظلهم جمع ما يستخرج منها وحمله إلى الخزائن السلطانية .

(٧) التركات التي لا وارث لها . وكان يتولى الاشراف عليها في حاضرة الديار المصرية ناظر من قبل السلطان ومهمته جمع إيرادها وإرساله إلى بيت المال . وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية فلها مباشرين يقومون بإرسال ما يتحصل منها إلى ديوان السلطان .

٥ - منشآت بيبرس

اتخذ بيبرس قلعة الجبل^(١) مقرا لحكمه وسار على سياسة من سبقة من سلاطين مصر في تجميل مدينة القاهرة وضواحيها . فأسس بها مدرسة زودها بالكتب التي تبحث في سائر العلوم . وقد شرع في بنائها سنة ٦٦٠ هـ بخط بين القصرين بالقاهرة على أنقاض قاعة الخيم^(٢) . ووقف عليها أوقافا ، وأمر بالآلة باستخدام في عمارتها عامل بغير أجره وألا ينقص مرتب من يقوم بتشيدتها .

ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢ هـ دعا العلماء والفقهاء والقراء للاجتماع بها ؛ بفلس أتباع المذهب الشافعي بالايوان القبلي والحنفية بالايوان البحري وأهل الحديث بالايوان الشرقي والقراء بالايوان الغربي . وعين لكل فريق من هؤلاء مدرّسا . وعند ما اكتمل جمعهم تناظروا في شتى المسائل ثم مدت لهم الأسمطة . وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعرا أشادوا فيه بذكر هذه المدرسة ومؤسسها الملك الظاهر . ولما أرفض مجلسهم منحهم السلطان الخلع .

ولم يكتف بيبرس بإنشاء هذه المدرسة ، بل بنى بجوارها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وقرر لمن فيه الخبز في كل يوم والكسوة في فصلي الشتاء

(١) تقع بين ظاهر القاهرة وجبل المقطم والفسطاط . وقد عهد بإنشائها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بهاء الدين قراقوش لتكون مركزا للحكومة وقلعة للجند . وتمت عمارتها في عهد الملك الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦٠٤ هـ ، فانتقل من قصر الفاطميين إليها . وظلت منذ ذلك الحين مقرا لسلاطين الأيوبيين والمماليك . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٢

(٢) وهي إحدى قاعات القصر الفاطمي الكبير الذي بناه جوهر للعز الدين الله الفاطمي .

(١) والصيف ؛ ثم شرع في سنة ٦٦٥ هـ في بناء الجامع الظاهري ، فأرسل الأتابك فارس الدين أقطاي والصاحب نجر الدين بن حنا ومعهما بعض المهندسين للبحث عن مكان يليق لأن يقام عليه مسجد بجهة الحسينية ؛ فوقع اختيارهم على مناخ الجمال السلطانية ، فلم يلق هذا الاختيار قبولا لدى الملك الظاهر وقال : " لا والله لا جعلت الجامع مكان الجمال ، وأولى ما جعلته ميداني الذي ألعب فيه بالكرة وهو نزهي " . ثم ركب إلى ميدان قراقوش وقترأيه على أن يبني الجامع على جزء منه وأن يوقف بقيته عليه ، ثم شرع في استحضار الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر الولايات .

ولما فرغ من إعداد معونات البناء توجه إلى المدرسة الظاهرية وجلس بين الفقهاء والقراء وقال : " هذا مكان جعلته لله عز وجل وخرجت عنه وقفاً لله ، فإذا مت لا تدفنوني (كذا في الأصل) هنا ، ولا تغيروا معالم هذا المكان ، فقد خرجت عنه الله تعالى " .

ولم تقف عناية بيبرس ببناء هذا الجامع عند هذا الحد ؛ بل إنه عندما استولى على يافا وهدم قلعتها ، شحن مركبا من رخامها وأخشابها إلى القاهرة ، وأمر بأن يبني من هذا الخشب مقصورة الجامع الظاهري . ولما انتهت عمارته سار إليه سنة ٦٦٧ هـ ، وعين له خطيبا حنفي المذهب ، وخاع الخلع على من تولى الإشراف على بنائه . وكان من بينهم الصاحب بهاء الدين بن حنا والأمير علم الدين سنجر والى القاهرة (٣) .

كذلك اهتم بيبرس بإعادة الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في عهد الفاطميين . وكانت صلاة الجمعة قد أبطلت منه منذ تولى قضاء مصر صدر الدين عبيد الملك

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ؛ أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٣

القسم الثاني ص ١٩٠ .

(٢) هو المكان المخصص لأنواع الجمال السلطانية كالاصطبلات لأصناف الخيل

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

ابن درباس في عهد السلطان صلاح الدين^(١). وقد ظل الأزهر معطلا من الخطبة إلى أن سكن بجواره الأمير عز الدين أيدير الحلبي^(٢)، فزاعه ما آل إليه هذا الجامع وتحديث مع الملك الظاهر في مسألة إصلاحه، فأمدته ببعض الأموال للانفاق عليه. وتبرع الحلبي أيضا بأموال كثيرة لهذا الغرض، واستطاع بذلك أن يعمر الواهي من أركانه وسقوفه وجدرانه وأستجد به مقصورة ومنبرا.

وعند ما فرغ من ترميمه تناقش الناس في هل تصح إقامة صلاة الجمعة به أم لا؛ فأجاز ذلك جماعة من الفقهاء، وعارض قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز في إقامة الصلاة به. فشكا الحلبي ذلك إلى السلطان، فتحدث الأخير مع قاضي القضاة في هذه المسألة فصمم على المنع. فما كان من الحلبي إلا أن عمل بفتوى من أجاز إقامة الصلاة به، وطلب من السلطان أن يحضر، فامتنع عن الحضور. ألم يحضر قاضي القضاة^(٣).

وعلى الرغم من ذلك أقيمت به صلاة الجمعة في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ، وأدخلت عليه تعديلات أخرى، فألنشا به الأمير بدر الدين بيليك الخازندار مقصورة كبيرة عين بها مدرسا وجماعة من الفقهاء الشافعية ومحدثا يتلو الحديث النبوي وسبعة قراء لقراءة القرآن الكريم ووقف عليه أوقافا^(٤).

ولم يكن هذا كل ما قام به بيبرس من ضروب الإصلاح؛ فقد بنى برجا بقلعة الجبل، وشيد قناطر السباع^(٥) على الخليج المصري، وأصلح ما تهدم من كل من منارتي رشيد والآسكندرية، وحدث سور الأخيرة، وردم فم بحر دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة

(١) ذكر المقرزي: مخطوط ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦؛ أن الخطبة كانت تقام في جامع الأزهر والحاكم قبل أن يقد صلاح الدين قضاء مصر لعبد الملك بن درباس وأن هذا القاضي لما تولى القضاء عمل بمقتضى مذهب الإمام الشافعي وهو منع إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمي لاتساعه. (٢) المقرزي: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٥٦ - ٥٥٧

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٣٤

(٤) عرفت بذلك لأن بيبرس نصب عليها سباعا من الحجارة. المقرزي: مخطوط ج ٢ ص ١٤٦

من العبور إذا ما أرادوا الإغارة عليها من طريق البحر، واختط قرية بمديرية الشرقية قرب العباسة سماها الظاهرية .

ولم تكن عناية بيبرس بالفنون مقصورة على القاهرة وحدها ، بل تعدتها إلى المدينة المنورة وأمّهات مدن الشام . فقام بعدة إصلاحات بالحرم النبوي ومارستان المدينة وقبة الصخرة ببيت المقدس ، وجدّد مسجد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، وشيد القصر الأبلق بدمشق على قواعد ثابتة ودعم أركانه فظل حاضرا حتى هدمه تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) .

أما عن فن العمارة في عصر بيبرس فإنه لم يتخذ طابعا خاصا كما لم يستقر على قواعد ثابتة . فقد أسس الملك الظاهر مدرسته على نمط المدارس التي بنيت في عهد الدولة الأيوبية ، وكانت عبارة عن بناء مبني على سمت القبلة وفي وسطه صحن كبير مربع ، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان مقبب وبها محراب . ومن ثم كانت المدرسة لا تخرج عن كونها مسجدا .

ولما شرع بيبرس في إنشاء الجامع الظاهري استعمل في بنائه لأول مرة مداميك الحجر الأبيض والأحمر على التوالي ، كما زينه بزخارف متخذة من الجص . وقد ظلت هذه الزخارف ملحوظة في طرز واجهات أبنية قلاوون الذي ابتداء يدخل في أيامه على فن المعمار شيء من المحسنات الأجنبية ؛ غير أن ابنه الناصر عند ما تولى سلطنة مصر شرع في تطهير صناعة الأبنية العربية مما دخل عليها . وقد سار على منواله أهل بيته وغيرهم من رجالات دولته . وكان لذلك أثره في ارتقاء فن العمارة في مصر .

(١) المقررزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٥٦١ و ٥٦٣ — ٥٦٤
و ٦١٦ ؛ العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٦٢٠ — ٦٢١ (٢) أي طبقات من الحجر الأبيض والأحمر المتلاصقة بالملاط (المونة) .

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41.

(٤) مكس هرتس بك : لمعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية المصرية ص ٣٦ — ٣٧

(تعريب على بك بهجت) .

٦ - الحياة العلمية والأدبية

وجه بيبرس عنايته إلى نشر العلوم الإسلامية ، فشيّد لذلك المدارس وزوّدها
بمخيرة العلماء والفقهاء ، وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في عهد الفاطميين ،
فصار الطلاب يهرعون إليه من كل أرجاء العالم الإسلامي ، فاستعادت بذلك
القاهرة مكانتها العلمية والأدبية ، ونبغ بها بعض الكتاب والمؤلفين ومن مشاهيرهم :
محيي الدين بن عبد الظاهر وابن خلكان وجمال الدين بن واصل .

ويمتاز ابن عبد الظاهر^(١) بأنه نشأ بالقاهرة وتلقى بها علومه ، وبرع في نظم الشعر
وكتابة الرسائل والتاريخ . ومن مؤلفاته كتاب " السيرة الظاهرية " ويشتمل على
تاريخ الملك الظاهر بيبرس . وهو من المراجع الهامة التي يعتمد عليها في استقصاء
تاريخ هذا السلطان . وقد نقل عنه كل من النويري في كتابه نهاية الأرب ومفضل
ابن أبي الفضائل في كتابه " النهج السديد " .

أما ابن خلكان^(٢) فقد نشأ بمدينة إربل ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ بعد
ما تلقى علومه في حلب ودمشق . ومن مؤلفاته كتاب " وفيات الأعيان وأنباء أبناء

(١) ولد محيي الدين بالقاهرة في ٩ من المحرم سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ومات بها سنة ٦٩٢ هـ
(١٢٩٢ م) . ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه كاتباً لسره بديوان الإنشاء وعهد إليه بأداء بعض المهام ،
فتولى قراءة نسب الخليفة العباسي سنة ٦٦١ هـ . وكتب تفويض عهد السلطنة لولي عهده الملك السعيد
في سنة ٦٦٢ هـ ، كما كلفه بالذهاب إلى عكا سنة ٦٦٦ هـ ليحلف أميرها على طاعة السلطان . وظل في منصبه
طوال عهد بيبرس وولديه والمنصور قلاوون والأشرف خليل . Enc. Isl. art. Ibn abd al-Zahir .

(٢) ولد ابن خلكان سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) بمدينة إربل من أعمال الموصل وينسب إلى أسرة
يحيى بن خالد البرمكي . وقد بدأ دراسته سنة ٦٢٦ هـ تحت إشراف ابن شداد في حلب ثم انتقل منها إلى
دمشق وأقام بها مدة . ولم يلبث أن قدم إلى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ ، فعين بها نائباً لقاضي القضاة يوسف
ابن حسن السنجاري . ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) قاضياً للقضاة بدمشق ،
ثم عزل سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) فاشتغل بالتدريس بالمدرسة الفخرية التي أسسها الأمير نجر الدين استادار
الملك الكامل سنة ٦٢٢ هـ ، وقضى بها سبع سنوات عاد بعدها إلى منصبه الأول بدمشق ثم عزل منه
سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٢ م) . وتوفي في السنة التالية ٦٨١ هـ Nicholson, a Literary

الزمان“، وهو يحتوي على معلومات قيمة في التاريخ والأدب، ويمتاز بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبلدان وتحقيق الحوادث وترتيب التراجم على حسب حروف المعجم .

ولم يكتب لنا ابن خلكان شيئاً عن بيبرس على الرغم من أنه عاصره وتوفى بعده بخمس سنوات ، بخاء ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات فاستدرك ما فات ابن خلكان وكتب عن الظاهر بيبرس .

كذلك نشأ جمال الدين بن واصل^(١) من منبت أجنبي عن مصر . فقد ولد بجماه وبها تعلم وتأدب ، ثم قدم إلى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ . ومن تأليفه ” كتاب نخبة الفكر في المنطق “ و ” مفرج الكروب في أخبار بني أيوب “ . وقد وقف ابن واصل عن تأليف هذا الكتاب الأخير أثناء سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) . ويرجع السبب في ذلك إلى ذهابه إلى صقلية حوالى ذلك الوقت وإقامته هناك عدة سنين . أما بقية التي تنتهى بسنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) فهي من تلخيص الكاتب الذى استملاه لكتاب آخر اسمه التاريخ . ويظهر لنا ذلك من هذه العبارة التي وردت في كتاب ”مفرج الكروب“ (ج ٢ ص ١٤٢٥) ونصها : ” قال الفقير إلى رحمة الله تعالى وعفوه نور الدين على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفرى انتهى إلى هاهنا إمام القاضى الإمام العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل رحمه الله تعالى ، ولم نستوعب حوادث سنة إحدى وستين وثمانمائة ، وجرت أمور كثيرة ونحن نذكر بعون الله تعالى مختصراً من تمام التاريخ على حسب الطاقة ونسأل الله تعالى المعونة في ذلك إنه على كل شيء قدير وإليه المصير “ .

ومن ذلك نرى أن دراسة التاريخ في عصر الملك الظاهر كانت في المحل الأول من عناية الكتاب ، ولم يعن أحد منهم بدراسة العلوم النقاية كالجغرافية والفلسفة

(١) كان في أول عهده مدرساً بجماه ، ثم قدم إلى القاهرة سنة ١٢٦١ ، فأرسله الملك الظاهر إلى منفرد ملك صقلية ليتفق معه على عقد معاهدة بين البلدين ، ففرض هناك وقتاً طويلاً ألف فيه كتابه ” نخبة الفكر في المنطق “ Enc. Isl. art Ibn Wasil.

والكيمياء والفلك . وقد يكون هذا راجعا إلى أن الدراسة في ذلك الوقت كانت مقصورة على العلوم الدينية .

وكان من مظاهر الأدب في هذا العصر النثر الفنى والنظم . وقد تجلّى الأول في الرسائل التي كانت تحزّر بديوان الإنشاء باسم السلطان وترسل إلى حلفائه من الملوك والأمراء وإلى ولايته وعماله بالأقاليم . وكان يعنى فيه بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية . أما النظم فإنه على الرغم مما أصابه كان أرقى من النثر كثيرا ، لأن تقيدته بالوزن والقافية لم يجعل فيه متسعا لتراكم المحسنات اللفظية وتزاحمها . ولم يصل إلينا منه إلا النذر اليسير ، وأغلبه مدح للسلطان ووصف لانتصاراته .

ومن أشهر الشعراء الذين ظهوروا في عصر بيبرس : الشيخ عبد العظيم بن الجزار وكان من فحول الشعراء^(١) . ومن شعره الرقيق قوله يشكو بعض أبناء زمنه :

من منصفى من معشر كثروا على وأكثروا
صادقتهم وأرى الخرو ج من الصداقة يعسر
كالخط يسهل في السطو ر ومحوه يتمدّر
وإذا أردت كشطته لكن ذاك يؤثر

ومن الشعراء الذين عاصروا بيبرس مجاهد بن أبي الربيع سليمان بن مرهف المصرى المتوفى سنة ٦٧١ هـ . وكان فاضلا أدبيا . ومن شعره^(٢) :

أعد يابرقُ ذكرى أهل نجد فإن لك اليد البيضاء عندي
أشيمك بارقا فيضلُّ عقلى فواعجبا تفضل وأنت تهدي
بعثت مع النسيم له سلاما فأعنوا على له برد

(١) ابن إياس ج ١ ص ١٠٨ - ١٠٩

(٢) ابن شاعر الكندي : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣١

وهناك شاعر آخر عاش في عصر بيبرس ، وهو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ . وقد ولد هذا الشاعر بدلاص من قرى مديرية بنى سويف سنة ٦٠٨ هـ ، ونشأ ببوصير وانتقل إلى القاهرة ، وفيها تعلم علوم العربية والأدب ، واشتغل بالكتابة والشعر ، وولى الكتابة فى الدواوين ، وتصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وبأشر بليس قصبه الشرقية فى ذلك الحين . ولم يرق فى نظره هذا العمل لما كان يراه من خيانة بعض العمال وسلب أموال الدولة فقال فىهم قصيدته المشهورة التى مطلعها ^(١) :

تَقَدَّتْ طَوَائِفُ الْمُسْتَحْدِمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا
فَقَدَّ عَاشِرَتَهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ مَعَ التَّجْرِبِ مِنْ عَمْرِى سَنِينًا

و يمتاز شعر البوصيرى بالرصانة والجزالة ويكثر فيه مراعاة البديع . ومن شعره قصيدة البردة وهى من أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم وأولها :

أَمِنْ تَذَكْرِ جِرَانِ بَدَى سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةِ بَدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطِمَةٍ ^(٢) وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلَمَاءِ مِنْ أَضِيمٍ ^(٣)

ومن حكمها البديعة :

وَالنَّفْسُ كَالظَّفَلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى حَبِ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطِّطَهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيه إِنَّ الْمَسْوَى مَا تَوَلَّى يُصِمُّ ^(٤) أَوْ يَصِمِ

وله قصيدة أخرى همزية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل عن البردة فى فصاحتها وأولها :

(١) ابن شاعر النكتى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٢) بلدة تقع على ساحل الخليج الفارسى من بلاد الجزيرة العربية على مقربة من مصب دجلة والفرات .
(٣) واد يتدفق من غربى المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .
(٤) أى ما تولى منه من أصحبت الصيد إذا قتلته وأنت تراه — (أو يصم) من وصم العود إذا صدعه أو من الوصم بمعنى العيب .

كيف ترقى رُقيك الأنبياءُ يا سماء ما طاوَلتَها سماءُ
لم يُدانوك في عَلاك وقد حا ل سنا منك دونهم وسناء^(١)
انما مثَلوا صِفاتِكَ للناس س كما مثل النجوم الماءُ
أنت مصباح كل ضوء فماتص دُر الا عن ضوئك الأضواء

وقد نسج على منوال هاتين القصيدتين كثير من الشعراء بعد البوصيري، ولكنهم لم يشقوا له غبارا بل تأخروا عنه. ولذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقي بك في قصيدته التي عارض بها البوصيري وسماها "نهج البردة" يعتذر عن تأخره عن الخلق بالبوصيري :

المادحون وأربابُ الهوى تبعُ لصاحب البردة الفيحاء في القدم
مديحُك فيك حبٌّ خالصٌ وهوى وصادقُ الحب يملئُ صادقَ الكلام

وقد توفي البوصيري بالأسكندرية سنة ٦٩٥ هـ. وله مسجد كبير بها يعرف الآن بمسجد الأباصيري تقيم فيه الحكومة الاحتفالات الدينية. وقد جدد هذا المسجد في أيام المغفور له سعيد باشا الأول وإلى مصر ونقشت البردة على جدرانها.

وهناك شعراء آخرون نظموا شعرا أشادوا فيه بذكر بيبرس في الحفل الذي أقامه لافتتاح المدرسة الظاهرية وهم: الأديب أبو الحسين الجزار، والسراج الورّاق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الحشّاب^(٢) :

ومما قاله أبو الحسين الجزار :

ألا هكذا يبني المدارس من بني ومن يتغالى في الثواب وفي الشنا
لقد ظهرت للظاهر الملك هممة بها اليوم في الدارين قد بلغ المنأ
تجمّع فيها كلُّ حُسنٍ مفريق فراقَت قلوبنا للأنام وأعينا

(١) السنا : النور. السناء : الرفعة . (٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٧٩

ومدجاورت قبر الشهيد فنفسه النفيد
وما هي الاجنة الخلد ازلقت
وقال السراج الوراق :

مليك له في العلم حبٌ وأهله
ولا تذكرن ملكا فيبيرس مالك
ولما بناها زعزعت كل بيعة
وقد برزت كالروض في الحسن أنبات
ألم تر محرابا كأن أزاهرا
فله حبٌ ليس فيه ملام
وكلُّ مليك في يديه غلام
متى لاح صبح فاستقر ظلام
بأن يديه في النوال غمام
تفتح عن الغداة كمام^(١)

ومن قول الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب :

قصد الملوك حمالك والخلفاء
أنت الذي أمراؤه بين الورى
ملك تزينت الممالك باسمه
وترفعت لعلاه خير مدارس
يبقى كما يبقى الزمان وملكه
كم للفرنج وللتار بيا به
وطريقه لبلادهم موطوءة
دامت له الدنيا ودام مخلدا
فانخرأت محلك الجوزاء
مثل الملوك وجنوده أمراء
وتجمت بمدحجه الفصحاء
حلت بها العلماء والفضلاء
باق له ولحاسديه فناء
رسل منها العفو والاعفاء
وطريقهم لبلاده عذراء
ما أقبل الا صباح والامساء

ولم يكن هذا كل ما قيل من الشعر في عهد بيبرس، بل هناك أشعار أخرى

نظمها محيي الدين بن عبد الظاهر :

فن قوله عندما استولى بيبرس على حصن عكار^(٢) :

يا مليك الأرض بشرا
إن عكار يقينا هي
ك قد نلت الإرادة
عكا وزيادة

(١) كمام : جمع كم، وهو غلاف الثوب. (٢) العنى : عقد الجمان ج ٢٠ الخلد الرابع ص ٥٦٦

ومن قوله أيضا عندما استولى الملك الظاهر على سييس :^(١)
ياويح سييس أصبحت نهبه كم عوق الجارى بها الجارية
وكم بها قد ضاق من مسلك يستوقف الماشى بها المشية

وله غير ذلك قصيدة ينهى فيها بيبرس بعيد الفطر سنة ٦٧٢ هـ وبختان ابنه
نجم الدين خضر وفيها يقول :^(٢)

يامالك الدنيا ومن بعزمه الدين نصير
هنت بالعيد وما على الهناء اقتصر
لكنها بشارة لها الوجود مفتقر
تفرحة قد جمعت ما بين موسى والخضر

فأنت ترى مما أسلفنا لك من النظم الرائع أن الحالة الأدبية في عصر بيبرس
لم تكن متأخرة إلى الحد الذى يظن لأقول وهلة . فإن كثيرا من مؤرخى الأدب
يرى هذا العصر بالجمود الشعرى ؛ ولكنى فى بعض هذه القصائد والقطع روحا
شعرية عالية وطلاوة ومعانى مبتكرة ، كما سنرى قصيدة أخرى رائعة من نظم
محيى الدين بن عبد الظاهر فى رثاء الظاهر بيبرس وتهنئة ابنه الملك السعيد بالملك .
وهى فى نظرنا لا تقل روعة عن غرر القصائد فى أزهى عصور الأدب . ولا شك
أن هناك أشعارا أخرى ضائعة ربما كانت أعلى من هذه فى الجودة . والزمان كفى
بكشف النقاب عنها .

٧ - الحالة الاجتماعية

كان يقطن بمصر فى عهد بيبرس عدّة عناصر من السكان بجانب أهل البلاد
الأصليين ، نخص بالذكر منهم المماليك والتتار والأكراد والأتراك .

(١) ابن شاکر الکتبی : عیون التواریخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣٦

(٢) بیبرس الدرادر : زبدة الفکره فى تاریخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٥

ولم يكن لأى عنصر من هذه العناصر أى نفوذ سوى المماليك الذين كانت تتكوّن منهم الطبقة الحاكمة ومعظم الجيش ، كما كان يسند إليهم أكبر مناصب الدولة . وقد احتفظوا بجنسيتهم وترفعوا عن الاختلاط بالمصريين والمصاهرة معهم ،^(١) وحرصوا كل الحرص على بقائهم طائفة عسكرية حاكمة .

وكان هؤلاء المماليك مولعين بالألعاب الرياضية وحب القتال واستعراض الجيوش ، كما عنوا بالصيد والسباحة وسباق الخيل والرماية . وقد سبقهم إلى ذلك بيبرس الذى مهر فى السباحة حتى قيل إنه عبر النيل وعليه درعه يتبعه كثير من الأمراء ، كما مهر أيضا فى رمى السهام . وبلغ من عنايته بالرماية أنه أقام لها ميدانا^(٢) خارج باب النصر كان يمكث به من وقت الظهر إلى غروب الشمس يشجع فيه الأمراء على الرمي والنضال ، حتى أصبح فن الرماية الشغل الشاغل لهم ولرجال حاشيته^(٣) . وبينما كان المماليك يعيشون عيشة الترف ، كان المصريون على العكس من ذلك لا عمل لهم إلا زراعة الأرض ودفن الضرائب . وكانوا يقومون فوق ذلك بصنع ملابسهم الفاخرة وبناء عمائرهم . غير أنهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية ؛ فكان يسند إليهم الوظائف الدينية والقضاء^(٤) .

أما أهل الذمة فلم يعاملهم بيبرس معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، لكثرة ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن . فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 216.

(٢) كان يعرف هذا الميدان باسم ميدان القبق . ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق وكانت تنزل به العساكر لرمي القبق . المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١١ وقد زاد على ذلك المقرئى فوصف لعب القبق بقوله ” إنه عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسبها وترمى بالسهام بحوف الدائرة لكي تمر من داخلها الى غرض هناك تمرينا لهم على إحكام الرمي “ .

(٣) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

(٤) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 253. p. 250-251

اشتغاله بغزو أرسوف سنة ٦٦٣ هـ، وأشيع أن النصرارى هم الذين أشعلوا هذه النيران . فعندما قدم الملك الظاهر إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم ، ثم أمر بإحراقهم ، فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاي أتايك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق ، وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار في كل عام . فأطلق سراحهم السلطان وتولى بطريكتهم دفع الأموال المطلوبة منهم ، وتعهدوا بالأبى يعودوا إلى فعل شىء من المنكرات وبالأبى يخرجوا عما هو مقرر لأهل الذمة^(١) .

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قدموا إلى مصر في أوائل عهد الملك الظاهر ، واتخذوا الإسلام ديناً لهم وأقاموا في دور بنيت لهم في أراضى اللوق^(٢) . وكانوا موضع عناية السلطان فمنحهم بعض الاقطاعات . وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التى عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن كثر عدد الوافدين منهم ، وتزايدت بذلك العمائر في اللوق والجهات التى حوله^(٣) .

أما الأكراد والأتراك فلم يكن لهم شأن يذكر في ذلك العهد . وكان بعضهم جنوداً في جيش السلطان ؛ وفيما عدا ذلك لم يكن لهم أى نصيب في الحياة العامة . وإلى جانب هذه العناصر كان هناك بعض طوائف من الفرنجة يستوطنون الثغور المصرية ويستغلون بالتجارة وليس لهم أى نفوذ في البلاد .

هذا ، وقد حرص الملك الظاهر على نشر الفضيلة بين أفراد رعيته . فالزم رجال حاشيته وبطانته بأداء الصلوات في أوقاتها ليكونوا قادة الشعب في الأمور الدينية كما هم قادته في الشؤون السياسية ؛ وأتى على ما كان بالبلد من منكرات ، فمنع

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ، القسم الثانى ص ٥٣٥ ؛ مفضل بن أبى القضاة : كتاب النهج السديد ص ١٣٤ - ١٣٥

(٢) ذكر المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١٧ ؛ أن اللوق كانت تطلق في عهده على الجهات التى تعرف اليوم بباب اللوق .

(٣) المقرئى : نفس المرجع ص ١١٧ - ١١٨

المسكرات ونحرب بيوتها ، كما أصدر أوامره بإغلاق محال البغاء وخاصة ما كان منتشرا منها بالأسكندرية . وكان يسير بنفسه ليلا في شوارع القاهرة ليقف على أحوال رعيته ، ثم يصدر تعليماته بما يجب اتباعه لنشر الأمن والطمأنينة .

وكان بيبرس بجانب ذلك شديد الوطأة على النساء . ولا عجب في ذلك فقد كان سنيا مغاليا في مذهب السنة ، فمنع النساء من أن تتعمم وتتريا بزى الرجال ، كما اضطهد المغنين والمغنيات وأرباب الملاهى والحلاعة والمجون ، فضاقت بهم سبل العيش في عهده وقل عددهم واستراحت البلاد من مفسدهم^(١) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٠٠ و ٥٠٣ و ٥٤٠ و ٦١٢